دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.43].

عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية الحديثة
دراسة تاريخية

د. أسماء جاد الله عبد خصاونة
أستاذ مشارك – قسم التاريخ
كلية الآداب واللغات – جامعة جدارا
المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّص

يُعَدّ عبد الحميد بن باديس من العلماء البارزين الذي غرسوا بذور الأمل والتحرر في بعث النهضة الإصلاحية الحديثة في الجزائر وكافة أقطار المغرب العربي، ووقف محاربًا ثائرًا في وجه الاستعمار الفرنسي، من خلال عدة جبهات كان أهمها في التربية والتعليم التي اعتبرها أهم مرتكزات العمل الإصلاحي، وانجح السبل في المجتمع للتطور والنهوض، والقضاء على الجل والتخلف ومن ثَمَّ العيش بحرية واستقلال، كما أسس جمعية العلماء المسلمين التي تمكنت من إعادة بناء الإنسان الجزائري وصقل شخصيته القائمة على بعدي العروبة والإسلام، واعتلى منبر والصحافة ليقينه بالدور الفعَّال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار، ومارس نشاطه السياسي بكل جرأة ضد المستعمر، كما ركز البحث على جوانب العوامل الأساسية التي ساهمت تكوين المنظومة الفكرية لابن باديس التي استطاع من خلالها الوصول لعقل وفكر كل مواطن عربي ومسلم يؤمن بإمكانيات أمته وعظمة دينه. وقد توصل البحث إلى أن أراء ابن باديس ومواقفه كانت ذات أثر كبير ليس في حياته فقط وإنما بعد وفاته، فقد استمرت الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار الفرنسي وتمخضت عنها ثورة المليون ونصف المليون شهيد عام ١٩٥٤م، كما يرجع الفضل لابن باديس في إذكاء روح التحرر والمطالبة بالاستقلال لدى كافة الشعوب العربية في أفريقيا.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ سبتمبر ٢٠٢٢
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ نوفمبر ٢٠٢٢

كلمات مفتاحية:

ابن باديس؛ الحركة الإصلاحية؛ الاحتلال الفرنسي؛ تاريخ الجزائر الحديث؛ جمعية العلماء المسلمين

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2022.310717

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أسماء جاد الله عبد خصاونة. "عبد الحميد بن باديس رائد النهضة الجزائرية الحديثة: دراسة تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الخامسة عشرة- العدد الثامن والخمسون؛ ديسمبر ٢٠٢٢. ص ١١٥ – ١٢٥.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: akhasawneh@jadara.edu.jo
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

نُشر هذا المقال في دَّورية كان التَّاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقدِّمَةُ

قُدّر للجزائر أن تكون أول الأقطار العربية وقوعًا تحت براثن الاحتلال، وأن يكون مغتصبها الفرنسي من أقسى المحتلين سلوكًا وتجبر وطغيان، حيث استهدف طمس هوية الجزائر ودمجها باعتبارها جزءًا من فرنسا، ولم يترك وسيلة تمكنه من تحقيق هذا الغرض إلا اتبعها، فتعددت وسائله، وإن جمعها هدف واحد، هو هدم عقيدة الأمة، وإماتة روح الجهاد فيها، وإفساد أخلاقها، وإقامة فواصل بينها وبين هويتها وثقافتها وتراثها، بمحاربة اللغة العربية وإحلال اللغة الفرنسية محلها، لتكون لغة التعليم والثقافة والتعامل بين الناس.

وقد قاوم الشعب الجزائري بكل قوة وعنف، حتى إن الثورات المتكررة منذ بداية الاحتلال، دفعت أحد القادة الفرنسيين للاعتراف بان سيطرة فرنسا في الجزائر ستنتهي كما انتهت سيطرة الإسبان والبرتغال سابقًا. وكانت فرنسا تعمد بعد كل ثورة شعبية إلى أساليب جديدة كي ترغم الشعب الجزائري للخضوع لها، فصادرت الأراضي، وفرضت الضرائب لتنهك كاهل المواطن الجزائري، وتفرض سيطرتها الاقتصادية والاجتماعية والثقافية مقرونة بالقوة العسكرية المسيطرة على الأرض (الميلي، ٢٠٠٧، ص.٣٨). ولم يستسلم الشعب الجزائري لهذه المخططات، فقاوم بكل ما يملك، ودافع بما توفر لديه من إمكانات، وكانت معركة الدفاع عن الهوية واللسان العربي أشد قوة وأعظم تحديًا من معارك الحرب والقتال، وقد عبّر ابن باديس، عن إصرار أمته وتحديها لمحاولات فرنسا بقوله: "إن الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا لو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد، في لغتها، وفي أخلاقها وعنصرها، وفي دينها، لا تريد أن تندمج، ولها وطن محدد معين هو الوطن الجزائري" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣ ص. ٣٠٨).

وقبل الحديث عن ابن باديس نتوقف عند هذا النص الذي يصور لنا عظمة هذه الشخصية وقوة تأثيرها على المجتمع الجزائري وما حققته بشكل منفرد أولاً ثم بتظافر جهد مناصري فكره يقول محقق كتاب أثار ابن باديس: "أيها السادة: إن الشيخ ابن باديس أمة واحده استطاع بمفرده أولاً وبمساعدة إخوانه من العلماء ثانيًا أن يقوم بتربية جيل وتكوين أمة، وتبصيرها بشخصيتها ومقوماتها، وهو الذي استطاع أن يضع أصول نهضتنا الفكرية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية، وأن الثورة الجزائرية العظيمة في جوانبها النفسية وقوتها المعنوية التي تتمثل في كلمة "الجهاد" ترتد إلى عمله التربوي الخاص والعام، تربية الجيل في المدارس وتربية الأمة في المساجد وبرحلاته في مختلف أنحاء القطر. وإحياؤنا لذكراه إنما هو اعتراف بالجميل، وتخليد لعمله العظيم، وروحه القوية التي تمثل رمزًا من رموز حياتنا العقلية والأخلاقية، وعنصرًا من عناصر وجودنا الذاتي، لأن ابن باديس قام بعملية التربية والوعي، تلك العملية التي تعتبر أعمق نشاط يؤديه الكائن البشري على الإطلاق، لأنه به يصنع المادة البشرية الصالحة، ويصوغ الذات الاجتماعية النافعة، ويبني الشخصية المتكاملة الشاعرة بوجودها وذاتيتها وحريتها" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١، ص. ١٢٠).

هذه الفقرة توضح بما لا يدع مجال لشك قوة التأثير الذي أحدثه هذا المصلح في نفوس أبناء الجزائر، كبيرهم وصغيرهم، رجالهم ونسائهم وما الثورة الجزائرية عام ١٩٥٤م إلا ثمرة تلك الجهود المضنية التي بذلت في المساجد والمدارس وفي مختلف نواحي الجزائر.

أولاً: المولد والنشأة

ولد عبد الحميد بن باديس في (١١ ربيع الآخِر ١٣٠٧ هـ/ ٥ كانون الأول ١٨٨٩م) في مدينة قسنطينة شرق الجزائر، لأسرة من أكبر أسر قسنطينة التي لها صفحة مجيدة في تاريخ العرب بإفريقيا (معروف، ٢٠٠٦، ص. ٢٠٥)، والده السيد مصطفى بن مكي من حفظة القران الكريم وعضو المجلس الجزائري الأعلى، وعضوًا في المجلس العمالي في قسنطينة نائبا عن المدينة، والدته السيدة زهيرة بنت علي بن جلول من الأسر المشهورة بقسنطينة بالعلم والثراء (التقاز، ٢٠١٢، ص. ١٠٥). وهو ينتمي الى سلالة ترتقي في أولها الى المعز بن باديس الصنهاجي آخر سلالة دولة بني زيري في القيروان، الذين ولوا الحكم في أفريقيا من قبل الفاطميين بعد استقرارهم في مصر. (سالم، ١٩٩٩، ص.٣٥).

ونشأ عبد الحميد بن باديس وترعرع في أسرة ذات عراقة وثراء، ومشهورة بالعلم والأدب، عنيت بتعليم ابنها وتهذيبه، حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة من عمره على يد الشيخ " محمد المداسي"، وقُدم لصلاة التراويح في الناس على صغر سنه، وتعلّم مبادئ الإسلام والعربية على يد الشيخ " حمدان لونيسي" (فركوس، ٢٠١٤، ص. ٩)، تزوج وهو في سن الخامسة عشر من عمره من احدى قريباته، ورزق منها مولود ذكر اسماه إسماعيل ،حيث نهج نفس نهج والدة فأتم حفظ القران في سن مبكر، إلا أن القدر لم يمهله طويل فمات في حادث مفاجئ، لم تدم حياة ابن باديس الزوجية طويلاً حيث وقع الانفصال بينه وبين زوجته ولم يتزوج بعد ذلك، وتفرغ للعلم والعمل في سبيل

إصلاح الأمة الجزائرية ونشر العلم بين أبناء الشعب الجزائري على مختلف فئاته، شيب وشباب ذكور ونساء وكان جل همة إنقاذ الجزائر وتخليصها من مخالب الاستعمار(فلوسي، ٢٠٠٦، ص. ١٤).

سافر إلى تونس في سنة (١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م) وانتسب إلى جامع الزيتونة، وتلقى العلوم الإسلامية على جماعة من أكابر علمائه، أمثال العلّامة محمد النخلي القيرواني المتوفى سنة (١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ محمد الخضر الحسين، ، وتمكن خلال هذه الفترة من الاطلاع على العلوم الحديثة وعلى ما يجرى في البلاد العربية والإسلامية من دعوات إصلاحية دينية وسياسية كدعوة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا في مصر، وعبد الرحمن الكواكبي وشكيب أرسلان في الشام وكان لهذا المحيط العلمي والبيئة الاجتماعية ، والملازمات المستمرة لرجال الفكر والإصلاح والعلم الأثر الكبير في تكوين شخصيته ومنهاجه في الحياة (فركوس،٢٠١١، ص.١٨٤).

وبعد أربع سنوات قضاها ابن باديس في تحصيل العلم بكل جدّ ونشاط، تخرج في سنة (١٣٣٠هـ/ ١٩١٢م) حاملاً شهادة "التطويع"، وبقي عامًا آخر للتدريس حسب ما تقتضيه تقاليد هذه الجامعة، وعندما رجع إلى الجزائر شرع على الفور بإلقاء دروس في الجامع الكبير في قسنطينة ثم رحل إلى الحجاز لاستكمال فرائضة الدينية وأداء فريضة الحج عام ١٩١٢م، وهناك التقى بشيخه "حمدان الونيسي" الذي هاجر إلى المدينة المنورة، متبرّمًا من الاستعمار الفرنسي وسلطته، واشتغل هناك بتدريس الحديث، كما اتصل بعدد من علماء مصر والشام، وتتلمذ على الشيخ حسين أحمد الهندي الذي نصحه بالعودة إلى الجزائر، واستثمار علمه في الإصلاح، إذ لا خير في علم ليس بعده عمل، فعاد إلى الجزائر، وفي طريق العودة مرّ بفلسطين وزار المسجد الأقصى المبارك في القدس الشريف، ومنها انتقل الى الشام ثم لبنان يعدها سافر الى مصر وأثناء رحلته لمناطق المشرق العربي ومصر اتصل بعلمائها، واطّلع على الأوضاع الاجتماعية والثقافية والسياسية فيهما(الصنهاجي،١٩٦٨، ج١، ص٧٢-٨٠، العسلي،١٩٨٣،ص. ٩٤).

ثانيًا: العوامل المؤثرة في شخصية ابن باديس

تأثر ابن باديس بمن سبقه من أعلام الأمة الإسلامية كجمال الدين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا صاحب المنار، وعبد الرحمن الكواكبي، كذلك أثرت شخصية ابن باديس عدة عوامل كان لها الأثر الأكبر في تكوينها وتكوينه الفكري، ولقد أشار ابن باديس صراحةً إلى هذه العوامل والتي كان لها بالغ الأثر في شخصيته ومنها:

الأسرة: فقد كان لأسرة ابن باديس أثرها الواضح في تكوينه العلمي والعملي ويرجع ابن باديس الفضل الأكبر الى والده حيث رباه تربية دينيه وخُلقية فاضلة، ووجهه وجهة أخلاقية صالحة واختار له طريق العلم وانتقى له معلمين متميزين يجمعون الخلق، والصلاح، والنقاء، والورع. حيث قال: "إن الفضل يرجع أولا الى والدي الذي رباني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة، ورضي لي العلم طريقًا اتبعها ومشربًا أرده، وقاتني وأعاشني ولراني كالسهم، وراشني وحماني من المكارة صغيرا وكفاني كلف الحياة (الخطيب، ١٩٨٥، ص١٢٣).

البيئة التعليمية: يشير ابن باديس صراحة كذلك الى فضل شيوخه الذين نموا لديه حب العلم واستعداده لتحمل المشاق في سبيل ذلك فيقول " واذكر منهم رجلين فاضلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العلمية حمدان الونيسي القسنطيني وثانيهما الشيخ محمد النخيلي المدرس بجامع الزيتونة (شاهين ورمضان، ٢٠٠٢، ص. ٧).

الشعب الجزائري: يرى ابن باديس أن الأمة الجزائرية متجاوبة متفاعلة ولديها استعدادات الكمال ولها نسب عريق في المحامد والفضائل فأمة تحمل مثل هذه الصفات لابد لها من التأثير المباشر على شخصيته (سالم، ١٩٩٩، ص.٣٦).

زملاؤه من العلماء: حيث كان لوقوفهم إلى جانبه إثر قوي على مسارين باديس، فقد شد بهم ساعده وقوي من خلالهم زنده. وفي هذا يقول: "إذا كنت استمد القوة والحياة فإنما استمدها ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني واخص منهم الأسود الكبار وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفًا إلا وجدتهم معي كالأسود". (صندل، ٢٠١٣، ص.٢٤).

القرآن الكريم: لقد كان للقرآن الكريم الدور الأكبر والأبرز في تكوين شخصية ابن باديس ويفوق تأثيره تأثير كافة العوامل السابقة، فقد صاغ القرآن الكريم نفس ابن باديس واستولى على قلبه فسار على نهج القرآن الكريم طول حياته وتتبع خطاه أثناء دعوته فكان دستوره ومنهج حياته (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١، ص.٧٧-، ٧٩).

ثالثًا: جهود ابن باديس الإصلاحية

٣/١-في التربية والتعليم

آمن ابن باديس بأن التربية هي الوسيلة الأولى للإصلاح الثقافي والاجتماعي والسياسي، متبعًا منهج المدرسة التي ترى أن الإصلاح الاجتماعي يقوم على أساس أن الأخلاق تنبع من الداخل الإصلاح، وأن الوسيلة هي تطهير القلوب، وتغيير النفوس، وأن صلاح الإنسان وفساده إنما يقاسان بصلاح نفسه وفسادها، مستشهدا بالآية "قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا" (القرآن الكريم، الشمس،٩،١٠). وبهذا يكون خالف المدرسة الإصلاحية التي ترى أن الإصلاح ينبغي أن يبدأ من المؤسسات الاجتماعية، على اعتبار أن الإنسان صار إلى ما صار علية نتيجة عوامل البيئة المختلفة، لذا دعا للبدء بالإنسان وتغير الذات الإنسانية وتوجيهها والتركيز على العامل الأخلاقي الأساس في كل صلاح كما قال في مقالة تحت عنوان "صلاح التعليم أساس الإصلاح"، وركز على أنه لن يصلح المسلمون إلا اذا صلح علمائهم، لانهم بمثابة القلب للأمة، ولن يصلح العلماء إلا إذا صلح تعليمهم، المرتبط بالتعليم النبوي في شكله مستشهدا بقول الرسول (ﷺ) "إنما بعثت معلمًا (الطالبي،١٩٩٧، ص١٠٠-١٠١).

وما أن استقر المقام بابن باديس في قسنطينة، حتى شرع في إلقاء الدروس العلمية في الجامع الكبير، عائدًا بالأمة المحرومة إلى هدي القرآن والسنة. منتقدًا مناهج التعليم التي كانت سائدة حين تلقيه العلم والتي كانت تهتم بالفروع والألفاظ قائلاً: واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية، مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة، تفني الأعمار قبل الوصول إليها. وكان يلقي الدروس في تفسير القرآن بالجامع الأخضر بقسنطينة، فاستمع إليه المئات، وجذبهم حديثة العذب، وفكره الجديد، ودعوته إلى تطهير العقائد من الأوهام والأباطيل التي علقت بها (الجزار، ١٩٩٩، ص. ٢٢، فلوسي، ٢٠٦٦، ص. ١٧).

وفي الجانب التعليمي كان أبرز مساهمات ابن باديس في المساجد التي كانت الميادين التي يلقي فيها دروسه مثل الجامع الأخضر، ومسجد سيدي قموش، والجامع الكبير بقسنطينة، متطرقًا إلى إصلاح التعليم وتطوير مناهجه، (الصنهاجي، ١٩٨٦، ج١، ص. ١١٤). أما الأطفال فقد كان يعلمهم في الكتاتيب القرآنية بعد انتهاء فترات الدوام الصباحية والمسائية في كتاب "سيدي فتح الله"، وفي كتاب الزاوية القادرية بجامع "سيدي عبد المؤمن" الذي تعلم فيه سابقًا (فلوسي، ٢٠٦٦، ص. ١٨). وبضع سنوات أسس جماعة من أصحابه مكتبًا للتعليم الابتدائي في مسجد سيد بومعزة، ثم انتقل إلى مبنى الجمعية الخيرية الإسلامية التي تأسست سنة (١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، ثم تطوّر المكتب إلى مدرسة حديثة تحمل اسم جمعية التربية والتعليم الإسلامية التي أنشئت في (رمضان ١٣٤٩ هـ/١٩٣١م) برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس، ويذكر فلوسي أنها أول جمعية إسلامية تعنى بالتربية والتعليم يرخص لها في قسنطينة.

بعد مرور قرن كامل على الاحتلال الفرنسي للجزائر، فكان لهذا انعكاس على مضمون القانون الأساسي للجمعية حيث ركز على اعتبار أن الهدف الرئيس لهذه الجمعية نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف الدينية والعربية والفرنسية، وعدم الخوض في الأمور السياسية، وتأسيس ملجأ لإيواء اليتامى الذين تتربص بهم البعثات التبشيرية لاحتوائهم وإبعادهم عن دينهم والصنائع اليدوية بين أبناء المسلمين وبناتهم، كما نص قانون الجمعية على أن يدفع القادرون من البنين مصروفات التعليم، في حين يتعلم البنات كلهن مجانًا والتأكيد على إلحاق أبناء المسلمين الذين لم يتمكنوا من الالتحاق بالمدارس الحكومية وتثقيفهم باللسانين العربي والفرنسي، وإرسال الطلبة في بعثات علمية لتمكينهم من متابعة تحصيلهم العلمي في مراكز التعلمي التي كانت معروفة في ذلك الوقت، وفتح قسم خاص لتعليم البنات وتربيتهن تربية إسلامية صحيحة (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١، ص. ١١٤، فلوسي، ٢٠٠٦، ص.٢٩).

وكوّن ابن باديس لجنة للطلبة من أعضاء جمعية التربية والتعليم الإسلامية، للعناية بالطلبة ومراقبة سيرهم، والإشراف على الصندوق المالي المخصص لإعانتهم، ودعا المسلمين الجزائريين إلى تأسيس مثل هذه الجمعية، أو تأسيس فروع لها في أنحاء الجزائر، لأنه لا بقاء لهم إلا بالإسلام، ولا بقاء للإسلام إلا بالتربية والتعليم. وفيما يتعلق بالمرأة فقد حثّ ابن باديس الجزائريين على تعليم المرأة، وإنقاذها مما هي فيه من الجهل، وتكوينها على أساسٍ من العفة وحسن التدبير، والشفقة على الأولاد، وحمّل مسئولية جهل المرأة الجزائرية أولياءها، والعلماء الذين يجب عليهم أن يعلّموا الأمة، رجالها ونساءها، وقرر أنهم آثمون إثمًا كبيرًا إذا فرطوا في هذا الواجب (مطبقاني، ١٩٩٩، ص. ٦٠-٦٤). كما شارك ابن باديس في محاولة إصلاح التعليم في جامع الزيتونة بتونس، وبعث بمقترحاته إلى لجنة وضع مناهج الإصلاح التي شكّلها حاكم تونس سنة (١٣٥٠ هـ/١٩٣١م)، وتضمن اقتراحه خلاصة آرائه في التربية والتعليم، فشمل المواد التي يجب أن يدرسها الملتحق بالجامع، من اللغة

والأدب، والعقيدة، والفقه وأصوله، والتفسير، والحديث، والأخلاق، والتاريخ، والجغرافيا، ومبادئ الطبيعة والفلك، والهندسة، وجعل الدراسة في الزيتونة تتم على مرحلتين: الأولى تسمى قسم المشاركة، وتستغرق الدراسة فيه ثماني سنوات، وقسم التخصص ومدته سنتان، ويضم ثلاثة أفرع: فرع للقضاء والفتوى، وفرع للخطاب والوعظ، وفرع لتخريج الأساتذة (الصنهاجي،١٩٦٨،ج١، ص. ١١٨).

وكان لأسلوب ابن باديس الدور الأكبر في نفوس طلبته فقد أصبح مدرسة خاصة لتكوين القادة من خلال تربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم من ذل ووهن على يد المستعمر وزرع في نفوسهم الشعور بأن مسؤوليتهم ليست فقط تلقي العلم وتلقينه، بل العمل على إنقاذ أمتهم ووطنهم مما حل بهم على يد الاستعمار البغيض (العسلي ١٩٨٣، ص.٥٣). وقد كان لأسلوب ابن باديس فائق الأثر في حث الطلبة على التعلم وكان نموذج الجامع الأخضر مثالاً يُحتذي به الجميع فقد جمع العربي بالأمازيغي بالفقير بالغني بالبدوي بالمدني والحنفي بالمالكي فصهر ابن باديس هؤلاء الطلبة في بوتقة الدين أولاً ثم الوطن، فقد كان يستقبل التلاميذ بنفسه ويودعهم عند المغادرة وأوجد نظام العرفاء لمتابعة حل مشاكل الطلبة وليراقبوا سلوكهم أيضًا لا سيما وأن قسنطينة كان يقطن بها الفرنسيين الذين يتبعون عادات وسلوك مخالفة لعادات وسلوك المجتمع الجزائري. ومع كل هذا كان يتفقد الطلبة بنفسه مع صلاة الفجر ويديم الاتصال مع ذويهم لقد اهتم ابن باديس بمختلف نواحي العملية التربوية والتعليمية فانتج جيلا من الشباب الواعي والمثقف الذي اخذ على عاتقه مسؤولية تحرير البلاد من الاستعمار. (العسلي، ١٩٨٣، ص. ٥٤).

وعندما شرع الإمام ابن باديس في العمل التربوي الذي استمر فيه أربعة عشر عامًا (الزركلي، ١٩٨٦ مج ٣، ص. ٢٨٩) حيث انتهج في دعوته منهجًا يوافق الفكر الإصلاحي في البعد والغاية، وإن كان له طابع خاص في السلوك والعمل يقوم على ثلاثة محاور أساسية وهي:

المحور الأول: إصلاح عقيدة الجزائريين بالدرجة الأولى، ببيان التوحيد الذي يمثّل عمود الدعوة السلفية، وما يضادّه من الشرك، ذلك لأنّ التوحيد هو غاية إيجاد الخلق، وإرسال الرسل، ودعوة المجدّدين في كلّ العصور والأزمان، لذلك كانت دعوته قائمة على أخذ العقيدة من الأصول وعلى فهم الأوّلين، والتحذير من الشرك ومظاهره، ومن بدعة التقليد الأعمى، ومن علم الكلام وجنايته على الأمّة، وقال أيضًا: "نحن معشر المسلمين قد كان منّا للقرآن العظيم هجر كثير في الزمان الطويل، وإن كنّا به مؤمنين، بَسَط القرآن عقائد الإيمان كلها بأدلتها العقلية القريبة القاطعة، فهجرناها وقلنا تلك أدلة سمعية لا تُحَصِّل اليقين، فأخذنا في الطرائق الكلامية المعقّدة، وإشكالاتها المتعدّدة، واصطلاحاتها المحدثة، مما يصعب أمرها على الطلبة فضلاً عن العامّة" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج١،ص. ٤٠٧). وظهرت عنايته الأكيدة بتربية الجيل على القرآن وتعليم أصول الدين وعقائده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وكان همّه تكوين رجال قرآنيين يوجّهون التاريخ ويُغيّرون الأمّة، وقد تجلّى ذلك في بعض مقالاته حيث يقول رحمه الله: "فإنّنا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كلّ يوم" (فركوس، ٢٠١٤، ص. ١٧، الإبراهيمي، ١٩٩٧، ص. ٥٨٩).

المحور الثاني: فيتمثّل في إصلاح عقلية الجزائريين، وذلك بإصلاح العقول بالتربية والتعليم، بتكوين أجيال قائدة في الجزائر، تعمل على بعث نهضة شاملة تخرج بها من حالة الجمود والركود إلى الحيوية والنشاط، وقد كان يرى أنّ تحقيق هذه النهضة المنشودة يتوقّف بالدرجة الأولى على إصلاح الفرد الجزائري وتكوينه من الناحية الفكرية والنفسية ونجد ابن باديس يصرح بذلك بقوله: "إذ لا يكون ملك إلا بأسباب الملك، ولا تكون قوة إلا بأسباب القوة ولا تكون السيادة إلا بأسباب السيادة، وقد علمت من دينها أن السيادة لا تكون إلا بالملك وأن الملك لا يكون إلا بالقوة: قوة الأبدان وقوة العقول وقوة الأخلاق وقوة المال- وبهذه يكون العدل الذي هو أساس الملك- وأن لا قوة إلا بالعلم والعمل والتهذيب" (الصنهاجي، ١٩٦٨،ج٢، ص. ٢١٦).

المحور الثالث: يظهر في إصلاح أخلاق الجزائريين، وهذا ميدان الذي تدهور كثيرًا نتيجة لفساد العقول وفساد العقيدة الدينية، وقد كانت عنايته به بالغة من داخل الفرد بتطهير الباطن الذي هو أساس الظاهر، وتهذيب النفوس وتزكيتها وإنارة العقول وتقويم الأعمال، (فركوس،٢٠١٤، ص.١٧)، وإصلاح العقيدة حتى يعمل الفرد على تغيير ما بنفسه لكي يغيّر الله ما به من سوء وانحطاط، عملاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (القرآن الكريم، الرعد، ١١).

هذا، وقد اعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس أنّ سبيل النجاة والنهوض يكمن في الرجوع إلى فقه الكتاب والسنّة وعلى فهم السلف الصالح، ذلك لأنّ علماء السلف إن اتفقوا فاتفاقهم حجّة قاطعة، وإن اختلفوا فلا يجوز لأحد أن يخرج عن أقوالهم، وفي

المضمون يقول الشيخ ابن باديس رحمه الله: "لا نجاة لنا من هذا التّيه الذي نحن فيه، والعذاب المنوّع الذي نذوقه ونقاسيه، إلاّ بالرجوع إلى القرآن إلى علمه وهديه، وبناء العقائد والأحكام والآداب عليه، والتفقه فيه، وفي السنّة النبوية شرحه وبيانه، والاستعانة على ذلك بإخلاص القصد وصحّة الفهم والاعتداد بأنظار العلماء الراسخين والاهتداء بهديهم في الفهم عن رب العالمين" (الصنهاجي، ١٩٦٨،ج١، ص. ٤١٠). وفي نصيحة نافعة ووصية جامعة يقول رحمه الله تعالى: "اعلموا جعلكم الله من وعاة العلم ورزقكم حلاوة الإدراك والفهم، وجمّلكم بعزّة الاتباع، وجنّبكم ذلّة الابتداع أنّ الواجب على كلّ مسلم في كلّ مكان وزمان أن يعتقد عقدًا يتشرب به قلبه، وتسكن له نفسه، وينشرح له صدره، ويلهج به لسانه، وتنبني عليه أعماله، أنّ دين الله تعالى من عقائد الإيمان، وقواعد الإسلام وطرائق الإحسان إنما هو في القرآن والسنّة الثابتة الصحيحة وعمل السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، وإنّ كلّ ما خرج عن هذه الأصول، ولم يحظ لديها بالقبول -قولاً كان أو احتمالاً- فإنه باطل من أصله، مردود على صاحبه، كائنًا من كان في كلّ زمان ومكان، فاحفظها واعملوا بها تهتدوا وترشدوا إن شاء الله تعالى" (الصنهاجي، ١٩٦٨،ج٣، ص. ١٦٣، الإبراهيمي، ١٩٩٧، ص. ٥٨٨).

٣/٢-جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

اخذ تأثير فكر ابن باديس يظهر على مختلف نواحي الحياة في الجزائر فشهدت تطور ديني واجتماعي يخالف الاتجاه الرسمي الذي كان يشجع الطرق الصوفية لنشر الخرافات والبدع ويعمل للقضاء على اللغة العربية، لكن وقوف ابن باديس ضد هذا التوجه أضعفه وحصره بشكل كبير حيث كان لفتح المدارس العربية ومهاجمة الطرق الصوفية بالغ الأثر في نفوس الناس. لذلك لم يكن ميلاد جمعية العلماء المسلمين بالأمر الهين واليسير فقد سبقه إعداد وعمل دؤوب ومنظم ومنضبط بقواعد وأسس واضحة من قبل رجال امنوا بالإصلاح إيمانًا راسخًا عازمين على تخليص بلادهم من حالة الذل والهوان التي لحق بها على يد المستعمر الفرنسي (الإبراهيمي، ١٩٩٨٧، ص.٥٤-٦٠). فعندما احتفلت فرنسا بالعيد المئوي لاحتلال الجزائر في سنة (١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م) شحذ هذا الاحتفال البغيض همّة علماء المسلمين في الجزائر وحماسهم وغيرتهم على دينهم ووطنهم، فتنادوا إلى إنشاء جمعية تناهض أهداف المستعمر الفرنسي، وجعلوا لها شعارًا يعبر عن اتجاههم ومقاصدهم هو: "الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا"، وانتخبوا ابن باديس رئيسًا لها لقد كان هذا الاحتفال الحافز الجدي لتأسيس جمعية العلماء فكانت العصبة التي تحفظ الذات الجزائرية المهددة من قبل المستعمر حيث اسفر نداء ابن باديس الذي اطلقه عبر الشهاب عن اجتماع ثلاثة من رفاقه في نادي الترقي وهم محمد العاصي ومحمد عبابسة وعمر إسماعيل حيث طرح بداية فكرة تأسيس حركة قومية في الجزائر إلا أن هذه الفكر استبعدت واستقر راي المجتمعين على تكوين حركة غير سياسية وإنما من خلال روحها تسيطر على الساحة السياسية في الجزائر فكانت فكرة الجمعية وكان هدفها الأول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجمع الأمة الجزائرية حول هدف واحد وقد كان تسمية محمد العاصمي هي ما تفق عليه فاطلق عليها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الخطيب، ١٩٨٥، ص. ١٠٠) .وقد نجحت الجمعية في توحيد الصفوف لمحاربة المستعمر الفرنسي. وحشد الأمة الجزائرية ضدها، وبعث الروح الإسلامية في النفوس، ونشر العلم بين الناس، وكان إنشاء المدارس في المساجد هو أهم وسائلها في تحقيق أهدافها، بالإضافة إلى الوعّاظ الذين كانوا يجوبون المدن والقرى، لتعبئة الناس ضد المستعمر، ونشر الوعي بينهم (زروفة، ١٩٩٩،ص. ١٢٥).

ولعب الشيخ عبد الحميد بن باديس وإخوته في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دورًا معتبرًا في إعادة بناء الإنسان الجزائري وصقل شخصيته القائمة على بعدي العروبة والإسلام، وكان مؤسّس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين يرى أنّه يستحيل على الجزائريين أن يحاربوا فرنسا وهم مسلوبون حضاريّا وثقافيا، فعكف على إقامة المعاهد التعليمية والمدارس القرآنية والعربية التي ألغتها فرنسا وحاربتها من باب تجفيف المنابع، وقد نجح عبد الحميد بن باديس في إنشاء تيار عريض في الساحة الجزائرية يتخذ من هويته الثقافية عنوانا له، واستطاع أن ينسف مقولة الفرنسيين الذين كانوا يعتبرون الجزائريين فرنسيين حيث كتب قائلا في جريدة الشهاب لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: "أيها الشعب الجزائري، أيها الشعب المسلم، أيها الشعب العربي الأبي حذار من الذين يمنونك ويخدعونك، حذار من الذين يأتونك بوحي من غير نفسك وضميرك، استوح الإسلام ثمّ أستوح تاريخك وقلبك وأعتمد على نفسك وسلام الله عليك". (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٣٦٥).

ولكي ندرك أهمية ما قام به ابن باديس ورفاقه من العلماء الغيورين، يجب أن نعلم أن فرنسا منذ أن وطأت قدماها الجزائر سنة (١٢٤٦ هـ/١٨٣٠م) عملت على القضاء على منابع الثقافة

الإسلامية بها، فأغلقت المدارس ووضعت قيودًا مهنية على فتحها، والتي قصرتها على حفظ القرآن لا غير، مع عدم التعرض لتفسير آيات القرآن، وبخاصة الآيات التي تدعو إلى التحرر، وتنادي بمقاومة الظلم والاستبداد، وعدم دراسة تاريخ الجزائر، والتاريخ العربي الإسلامي، والأدب العربي، وتحريم دراسة المواد العلمية والرياضية (الصنهاجي،١٩٦٨، ج٣، ص. ٢٥٩).

لقد كان للهدف الأساسي للجمعية والذي ورد في بيانها الأول أثر كبير في نفوس أبناء الشعب الجزائري حيث هدفت الى محابة الآفات الاجتماعية والبطالة والجهل وكل ما يحرمه صريح الشرع وينكره العقل وتمنعه القوانين الجاري العمل بها وأنه يحق للجمعية أن تؤسس شعبًا لها في القطر وأن تفتح نوادي ومكاتب حرة للتعليم الابتدائي (الخطيب،١٩٨٥، ص. ١١١). أن هذا الشعار أو الهدف الذي انطلقت منه جمعية العلماء أعطاها الحق في أن تطرح فكرها من خلال المدارس والنوادي التي سمح لها في إنشائها في مختلف نواحي الجزائر ومن هذه الأماكن سينطلق مواكب المحررين لبلادهم من قيد الاستعمار كما كان يرى مؤسس هذه الجمعية ورفاقه وفق نظرتهم البعيدة للأحداث.

لقد كان ابن باديس ورفاقه حاذقين جدًا فاستطاعوا أن يحاربوا البدع والضلالات المنتشرة في الجزائر من جراء تشجيع المستعمر لطرق الصوفية فكان أحد أهدافهم الصريحة محاربة البدع والخرفات المنتشرة، كما استطاعوا من خلال الهدف الأساس نشر التعليم باللغة العربية، وتعزيز ونشر روح ومبادي التعاليم الإسلامية التي كانت تحاربها فرنسا بكل قوة عن طريق إرسال البعثات التبشيرية التي انتشرت في مختلف أنحاء الجزائر مستغلة حالة العوز والفقر والبطالة التي سادت أثناء الاستعمار الفرنسي. فكان للجمعية الدور الأبرز في محاربة كل هذه الأمور بطريقة تدريجية تبدأ من تنشئة الجيل على المحافظة على قيمة وعاداته وتقاليده والتمسك بدينه. (الخطيب، ١٩٨٥، ص. ١١٥).

إن إسهام جمعية العلماء المسلمين في بعث روح النهوض في المجتمع الجزائري كان إسهامًا قويًا حتى قيل عن الجمعية "والحق انه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيرًا واضحًا مثلما فعلت جمعية العلماء واذا كانت المنظمات الأخرى بما في ذلك الأحزاب السياسية قد خاطبة فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب، فإن خطاب جمعية العلماء كان قد وصل أفقيًا وعاموديًا إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدنية ومن ثَمَّ هزت المجتمع الجزائري هزًا عنيفًا (زروفة، ١٩٩٩، ص.٩٥).

لقد أسس ابن باديس جمعية العلماء المسلمين مع مجموعة من العلماء الجزائريين وحافظ عليها كي تحافظ على قيم المجتمع الجزائري وجنبها كل احتكاك مباشر في بداية التأسيس مع السلطات الفرنسية حيث كان يكتب مقالته الداعية الى حقوق الشعب الجزائري والمطالبة بمسواته مساوة كاملة وإعطائه حقوقه غير منقوصة في مجلته كي يجنب الجمعية وزملائه الإحراج وأن يتحمل هو شخصيًا لا أحد سواه مسؤوليته عما يقوم به، وقد عبر عن ذلك بقوله: إن ميدان العمل في هذه الجمعية لميدان واسع وهناك للعمل ميادين أخرى لا أدخلها باسمها، ولكن إن كان فيها منفعة أدخلها باسمي إن كان عند قومي قيمة لاسمي وأرجوا أن يعينني الله عليها (فركوس،٢٠١٤،ص. ٢١). بهذه العبارات عبر ابن باديس عن حرصه على الجمعية وأهدافها، وأنه يتحمل هو شخصيًا ما يترتب على أفكاره وطروحاته التي سيعرضها باسمه الشخصي بعيدًا عن أي اعتبارات.

٣/٣-إسهامات ابن باديس السياسية

تحمل علماء الجزائر العبء الأكبر في مقاومة الاستعمار الفرنسي وقادوا الأمة في مختلف المجالات الفكرية والاجتماعية والسياسية وكان ابن باديس يرى انه من حق علماء الجزائر أن يقودوا الحركة السياسية في الجزائر فقد قال: "ما هذا العيب الذي يُعاب به علماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من أثار الوزير القسيس رشيلو؟ افيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة وإنما لكل أمرئ ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٢٩٥، مطبقاني، ص. ٨٦). وقد دعا في محاضرة له بتونس سنة (١٣٥٦هـ/١٩٣٧) العلماء المسلمين على خوض غمار السياسة وعدم الاكتفاء بالعلم فالواجب الشعبي يحتم عليه خوض هذا المجال فيقول: "كلامنا اليوم عن العلم والسياسة معا وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجد". (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٨٧).

وكانت بدايته مع السياسة مقرونة ببداية امتهانه للتعليم للنشر العلم بين أبناء الأمة الجزائرية وتعريفهم بقضائهم ومشاكلهم وقد لخص هذا الحال بقوله عندما جاؤوا تلاميذه إليه يطلبون منه أن يدعوا للاستقلال فقال لهم: يا أبنائي مَنْ أراد أن يبني منزلاً هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال فبماذا إذن قالوا بالأساس والجدران فقال: هذا ما أفعله الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص.٩٢). لم يكن ابن باديس مصلحًا فحسب، بل كان مجاهدًا سياسيًا، مجاهرًا بعدم شرعية الاحتلال الفرنسي، وأنه حكم استبدادي غير إنساني، يتناقض مع ما تزعمه من أن الجزائر فرنسية، وأحيا فكرة الوطن الجزائري بعد أن ظنّ كثيرون أن فرنسا نجحت في جعل الجزائر مقاطعة فرنسية، ودخل في معركة مع الحاكم الفرنسي سنة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م) واتهمه بالتدخل في الشؤون الدينية للجزائر على نحو مخالف للدين والقانون الفرنسي، وأفشل فكرة اندماج الجزائر في فرنسا التي خُدع بها كثير من الجزائريين سنة (١٣٥٣ هـ/ ١٩٣٦م).

ودعا نواب الأمة الجزائريين إلى قطع حبال الأمل في الاتفاق مع الاستعمار، وضرورة الثقة بالنفس، ويرى أن تجاهل فرنسا لمطالب الجزائريين يحتم عليهم أن يقفوا في وجهها ويقوموا هذا الاستعمار وأن يعرفوا هم أنفسهم أن لهم قيمة وصوت يجب أن يسمعه الجميع، وأن الأمل مفقود في التعامل الدبلوماسي مع فرنسا لا سيما وأنها ترفض رفضًا قاطعًا التعامل مع الجزائريين المتمسكين بهوية الجزائر الإسلامية). (قاسم، د.ت، ص. ٧١)، وكان خطابه إلى جميع أحزاب الجزائر أن تتناسى خلافتها وأن تسموا فوق جراحها وخاطبهم بقوله: "حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب أمة ترى –أو ترى أكثريتها- ذلك كثيرًا علينا...! ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا"، ووقف ضد دخول الجزائر الحرب العالمية الثانية إلى جانب فرنسا (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٣٧١، سالم، ١٩٩٩، ص. ٣٤،٥٨).

وقد وقع خلاف بين ابن باديس وما يسمى باللجنة التنفيذية حيث لاحظ أن مطالب اللجنة لا ترقى إلى مستوى وآمال تطلعات الشعب الجزائري، وهوجم ابن باديس في مختلف المنابر إلا أنه رد الواثق بنفسه ودعوته، وكان يرى أن التهجم عليه وعلى أفكاره دليل على قوتها وخوف المستعمر وأعوانه منها، وأنه كلما زاد المستعمر بطشًا وطغيان زاد الإصرار لدى الشعب على التحرر فما على فرنسا إلا أن تغير سياستها وإلا ستكون هي الخاسر الأول. وقد دعا للحرية والانعتاق من الاستعمار فهو يقول: "حق كلّ إنسان في الحرية كحقه في الحياة، والمتعدي عليه في شيء من حريته هو المتعدي عليه في شيء من حياته، وما أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وما أنزل عليهم الكتب، وما شرع لهم الشرع، إلاّ ليعرّف بني آدم كيف يحيون أحرارًا وكيف يأخذون بأسباب الحياة والحرية، وكيف يعالجون آفاتها، وكيف ينظمون تلك الحياة وتلك الحرية حتى لا يعتدي بعضهم على بعض وحتى يستثمرون تلك الحياة وتلك الحرية إلى أقصى حدود الاستثمار النافع المفضي بهم إلى سعادة الدنيا وسعادة الآخرة... ولقد كانت هذه الشريعة المحمدية بما سنّت من أصول وما وضعت من نظم وما فرضت من أحكام أعظم الشرائع في المحافظة على حياة الناس وحريتهم، وما كان انتشارها ذلك الانتشار العظيم في الزمان القليل على يد رجالها الأوّلين إلا لما شهدت فيها الأمم من تعظيم للحياة والحرية والمحافظة عليها وتسوية بين الناس فيها مما لم تعرفه تلك الأمم من قبل: لا من ملوكها ولا من أحبارها ولا من رهبانها".(الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ٤٠٨).

وفي بداية المرحلة اتخذ أبن باديس شعار "الحقّ، والعدل، والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق الذين قاموا بجميع الواجبات"، رجاء تحقيق مطالب الشعب الجزائري بطريق سلمي، ولكنّه بعد عودة وفد المؤتمر من باريس سنة: (١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، اقتضت طبيعة المرحلة الجديدة إزاحته واستبداله بشعار آخر وهو: "لنعتمد على أنفسنا، ولنتكل على الله"، تعبيرًا على الحزم على الكفاح وغلق القلوب على فرنسا إلى الأبد والاستعداد للدخول في معركة ضارية، كما عبّر ذلك بقوله رحمه الله مخاطبًا الشعب الجزائري: قائلاً... وإن ضيّعت فرنسا فرصتها هذه، فإننا نقبض أيدينا ونغلق قلوبنا إلى الأبد... واعلم أنّ عملك هذا على جلالته ما هو إلاّ خطوة ووثبة، وراءها خطوات ووثبات، وبعدها إمّا الحياة أو الممات"، وهذه الحقيقة عبّر عنها أيضًا في مقال آخر سنة: (١٣٥٦هـ - ١٩٣٧) بلفظ (المغامرة والتضحية) وهي طريق الكفاح والحرب للخلاص من فرنسا، وظلّ ابن باديس وفيًّا لهذا المسلك الشمولي في مواجهته للاستعمار خلال كلّ سنوات نشاطه السياسي المندرج في نشاطه العامّ (زروقة، ١٩٩٩،ص. ١٥٢).

لقد حمل ابن باديس بالإضافة إلى الهم الداخلي، هم خارجي وهو هم الأمة العربية والأمة الإسلامية، ويشعر أن الوجع واحد، والهدف واحد وهو القضاء على الأمة العربية والإسلامية من قبل القوى الأوربية الطامعة في ديار المسلمين، والهادفة إلى احتلالها ونهب خيرتها، فيقف وقفة واضحة وصريحة ضد

التدخل البريطاني في فلسطين، ويرى أن البريطانيين يمهدوا الأرض للصهاينة للاحتلال فلسطين فيقول: "تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فانتجا لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل، وقذف بهم إلى فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيمًا لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحًا لا يندمل" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص. ٤١٣). بهذه الكلمات لخص لنا ابن باديس معاناة الأمة العربية والإسلامية وما تمثله فلسطين للجميع المسلمين.

٣/٤-نشاطه الصحافي

كان ابن باديس صحفي وقورًا هادئ رزين، يختار الموضوع، ويحدد المشكلة ثم يصف الدواء، شغوفًا بقراءة الصحف والمجلات العربية كالمنار للإمام رشيد رضا، ومجلة الفتح لمحب الدين الخطيب، وجريدة المؤيد واللواء والجرائد الفرنسية لاديبيش دوكونستونتين ولوتو وعن هذه الصحف الأخيرة يقول ابن باديس "لا ننكر أننا مع المعجبين بالصحافة الفرنسية الكبرى، ومالها من بديع نظام، ومهرة أقلام، وجرأة وإقدام"" (الصنهاجي، ١٩٦٨، ج٣، ص٢٩٨). وكان على يقين بالدور الفعَّال الذي تمارسه الصحافة في توعية الجماهير والتأثير في أصحاب القرار، وكان أول احتكاك فعلي له مع الصحف عام (١٣٣٧هـ/ ١٩١٩) حيث كان مساعدًا في تأسيس جريدة النجاح بقسنطينة ومشاركًا فعالاً في تحريرها وكتابة مقالاتها، ثم فكر في تأسيس صحيفة منفصلة له لتحقيق أهدافه ودعم نشاطه التربوي خارج المسجد (صندل، ٢٠١٣، ص. ٣٢).

وفي بداية تموز من عام ١٩٢٥ أصدر العدد الأول لصحيفة "المنتقد". التي أخذت شعار "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء". وفي العدد الثاني الصادر في ٩ تموز ١٩٢٥م، أكد من جديد على استقلالية الجريدة وشرح فلسفتها التي تعتمد على الوفاء للوطن والجرأة في بيان الحق "إننا لسنا لإنسان، ولا على إنسان، وإنما نخدم الحق والوطن، وأصبحت الصحيفة منبرًا لتوجيه وتوعية الجزائريين وقناة لنقد الوضع الاستعماري المفروض على الجزائر وصوتًا لمناصرة القضايا الكبرى للمسلمين في فترة العشرينيات كثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الريف المغربي ومساندة الشعب الليبي. أوقفت السلطة الاستعمارية صحيفة المنتقد بعد ظهور ١٨ عددًا، فكان مصيرها كالعروة الوثقى التي أنشأها جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وأوقفتها السلطات الفرنسية والبريطانية بعد صدور العدد الثامن عشر. (سالم ١٩٩٩، ص. ٥٣، زروقة، ١٩٩٩، ص. ١٧٨).

أصدر الإمام عبد الحميد بن باديس جريدة أسبوعية سمَّاها الشهاب ثم حوّلها إلى مجلة شهرية. في سنواتها الأولى، كتب معظم مقالاتها وقام بتصميمها وكان يوزعها بنفسه، وكان مثله كمثل أبي الأعلى المودودي صاحب مجلة ترجمان القرآن في بداية مشواره الدعوي. وأصبحت فيما بعد تضم افتتاحية، ومقالات، وفتاوى، وقصصًا، وأخبارًا، وطرائف، وتراجم، وعرضًا للكتب، والصحف العربية، والأجنبية، وتنشر مقالات للكتاب والشعراء العرب من مصر، ولبنان، وتونس، والمغرب. وأصبح لهذه المجلة شهرة واسعة في العالم الإسلامي وصدر في حياته منها خمسة عشر عددًا، وشهد بفضلها كبار العلماء والمصلحين (الزركلي،١٩٨٦ ج٣، ص. ٢٨٩).

وتقديرًا لجهوده كتب الإمام حسن البنا في افتتاحية العدد الأول من مجلة الشهاب التي أسسها في القاهرة في نهاية الأربعينيات كلمة وجهها للإمام عبد الحميد بن باديس ومجلته الشهاب قائلاً: "قامت مجلة الشهاب الجزائرية التي كان يصدرها عبد الحميد بن باديس في الجزائر بقسط كبير من هذا الجهاد، مستمدة من هدي القرآن الكريم وسنة النبي العظيم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. وإنا لنرجو أن تقفو "الشهاب" المصرية الناشئة أثرها وتجدد شبابها، وتعيد في الناس سيرتها في خدمة دعوة القرآن وتجلية فضائل الإسلام، على أن الفضل للمتقدم وفضل السبق ليس له كفاء". وكتب أيضًا في السياق نفسه المفكر السوري الدكتور محمد المبارك في مجلة المجمع العلمي الدمشقية أنه كان يطالع في شبابه في الثلاثينيات مجلة الشهاب الجزائرية التي تصل إلى دمشق مع مجموعة من أصدقائه الطلبة "بلهفة شديدة". وعن تأثيرها في المغرب، يقول الشيخ محمد غازي أحد علماء فاس "مجلة الشهاب الغراء خدمت الإسلام والمسلمين عمومًا والإصلاح والمصلحين خصوصًا، تلك الجريدة التي كان الشمال الإفريقي متعطشًا لمثلها منذ زمان (زروقة، ١٩٩٩، ١٨٥-١٨٧).

وفرض الشيخ عبد الحميد بن باديس نفسه على عالم الصحافة في فترة العشرينيات والثلاثينيات وصار رائدًا من رواد الصحافة العربية الحديثة وأرسى دعائمها على أسس متينة من الإيمان بالمبدأ والوطنية والتقاليد الصحافية العالية. وأصدر ابن باديس مجموعة من الصحف وهي: جريدة المنتقد، جريدة الشهاب. وشارك في تحرير الصحف التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ومنها السنة، والصراط، والبصائر، والشريعة (شاهين ورمضان، ٢٠٠٢، ص. ٩). وله عدة مؤلفات منها: تفسير ابن باديس في مجالس الذكر، من الهدي النبوي،

رجال السلف ونساؤه، عقيدة التوحيد من القران والسنة، أحسن القصص، رسالة في الأصول، مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية، (شاهين ورمضان، ٢٠٠٢، ص. ١٤).

رابعًا: وفاته

عاش ابن باديس حياة حافلة بالعطاء من أجل تحرير أمته ونسي ابن باديس نفسه في غمرة انهماكه بالعمل العام من اجل خدمة قضية عاش ومات وهو محافظ على مبادئه مقاوم لكل الإغراءات (زروقة، ١٩٩٩، ص.١٠١). وفي مساء يوم الثلاثاء ٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ، الموافق ١٦ نيسان ١٩٤٠م، على الساعة الثانية والنصف بعد الزوال أسلم ابن باديس روحه الطاهرة لبارئها، متأثرًا بمرضه بمسقط رأسه مدينة قسنطينة، والبعض قال إنه مات مسمومًا (الخطيب،١٩٨٥، ص.١٤٦، شاهين ورمضان، ٢٠٠، ص. ١٥).

وقد شيعت جنازته في اليوم التالي لوفاته الموافق عصر يوم الأربعاء ٩ ربيع الأول سنة ١٣٥٩ هـ، الموافق ١٧ نيسان ١٩٤٠م، وحمل جثمانه إلى مثواه طلبة الجامع الأخضر دون غيرهم وسط جموع غفيرة ما يزيد عن مئة ألف نسمة، جاءوا من كافة أنحاء القطر الجزائري لتوديعه الوداع الأخير، في حين كان عدد سكان قسنطينة آنذاك لا يتجاوز ٥٠ ألف نسمة (الميلي،٢٠٠٧، ص٧). وقد تركت وفاة الشيخ عبد الحميد بن باديس فراغًا كبيرا في صفوف الحركة الوطنية، وفي رجال الإصلاح الإسلامي في الجزائر وغيرها، وبين جماهير الشعب التي كانت تعتبره الزعيم المخلص، والوطني الغيور على دينه، ولغته، وشعبه، ووطنه، وعلى الإسلام والعروبة، بصفة خاصة وقد قال الشيخ الشهيد العربي بن بلقاسم التبسي في تأبينه في المقبرة ما يلي: "لقد كان هو الجزائر كلها فلنجتهد الجزائر بعد وفاته أن تكون هي الشيخ عبد الحميد بن باديس" (فلوسي، ٢٠٠٦، ص. ٤٤).

خَاتِمَةٌ

عالج البحث موضوعًا مهمًا في جهود باني النهضة الجزائرية الإمام عبد الحميد بن باديس، وأبرز البحث جوانب مهمه للإمام عبد الحميد بداية من نشأته والعوامل المؤثرة في حياته، ومجالاته الإصلاحية مبتدئًا بالتربية والتعليم الذي اعتبرها الأساس وهي مهمة للكبار والصغار للرجال والنساء، بل وركز على المرأة بشكل خاص، كما شدد على الاهتمام بالعلماء لأنهم منارة المجتمع. ومنهم يكون أساس الإصلاح بكافة جوانبه، كما ركز على الجوانب الدينية، وأسس جمعية العلماء المسلمين، وركز على السياسية وأخذ الصحافة منبرًا لبث كل أفكاره وتوجهاته.

إن الدارس لشخصية الإمام عبد بن باديس يجد صعوبة كبيرة في دراسته، ليس لندرة أو قلة المصادر والمراجع، بل لصعوبة تحديد أي جانب من الجوانب الكثيرة الغزيرة بالعلم والثقافة، الممتلئة بحب الأوطان، الواعي لخطورة مآرب الاستعمار الذي لا يقف عند حدود معينة والداعمة للحركة الصهيونية في كافة مناطق الإسلام والعروبة.

كانت أراء ابن باديس ومواقفه ذات أثر كبير ليس في حياته فقط وإنما بعد وفاته، فقد استمرت الحركة الوطنية في مقاومة الاستعمار الفرنسي وتمخضت عنها ثورة المليون ونصف المليون شهيد عام ١٩٥٤م، كما يرجع الفضل لابن باديس في إذكاء روح التحرر والمطالبة بالاستقلال لدى كافة الشعوب العربية في أفريقيا.

المصادر والمراجع:

- التقاز، عبد الله عبد العزيز (٢٠١٢)، **عبد الحميد بن باديس ودوره الفكري والسياسي**، المجلة العلمية لكلية الآداب ،٤١، ١١٥-١٠٤.
- الجزار، أحمد محمود، (١٩٩٩)، **الإمام المجدد ابن باديس والتصوف**، منشاة المعارف، الإسكندرية.
- الخطيب، أحمد، (١٩٨٥)، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وأثرها الإصلاحي في الجزائر**، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- الزركلي، خير الدين (١٩٨٦)، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، ج٣، دار العلم للملايين.
- زروقة، عبد الرشيد، (١٩٩٩)، **جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر**، دار الشهاب.
- سالم، محمد بهي الدين (١٩٩٩)، **ابن باديس فارس الإصلاح والتنوير**، دار الشروق.
- شاهين، توفيق محمد، رمضان، محمد صالح، (٢٠٠٢) **تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير للإمام العلامة عبد الحميد بن باديس**، دار الكتب العلمية.
- الصنهاجي، عبد الحميد محمد بن باديس (١٩٦٨)، **أثار ابن باديس، أربعة أجزاء**، تحقيق: عمار طالبي، دار ومكتبة الشركة الجزائرية، ١٩٦٨م.
- العسلي، بسام (١٩٨٣)، **عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة**، دار النفائس.
- فركوس، أبو عبد المعز (٢٠١٤)، **شرح عقيدة التوحيد للإمام ابن باديس، الجزائر**، دار العواصم.
- فركوس، أبو عبد المعز محمد علي (٢٠١١)، **الإعلام بمنثور تراجم المشاهير والأعلام**، دار الموقع.
- فلوسي، مسعود بن موسى (٢٠٠٦)، **الإمام عبد الحميد بن باديس لمحات من حياته وأعماله وجوانب من فكره وجهاده**، دار قرطبة.
- قاسم، محمود (١٩٦٨)، **الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية**، دار المعارف.
- الميلي، محمد (٢٠٠٧)، **ابن باديس وعروبة الجزائر**، وزارة الثقافة الجزائرية.
- الإبراهيمي، أحمد طالب، (١٩٩٧)، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ج٣ عيون البصائر، دار الغرب الإسلامي.